ولاتنسوا الفضل بينكم – مبدأ عظيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وبعد ...

قال تعالى : "وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ، إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ، وأن تعفو أقرب للتقوى ، ولا نسوا الفضل بينكم ، إن الله بما تعملون بصير" .

قال في الدر المنثور ج: ١ ص: ٦٩٨

روى ابن أبي داود في المصاحف عن الأعمش أنه قرأ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وفي قراءة عبد الله من قبل أن تجامعوهن

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن الآية قال هو الرجل يتزوج المرأة وقد سمى لها صداقا ثم يطلقها من قبل أن يمسها والمس الجماع فلها نصف صداقها وليس لها أكثر من ذلك إلا أن يعفون وهي المرأة الثيب والبكر يزوجها غير أبيها فجعل الله العفو لهن إن شئن عفون بتركهن وإن شئن أخذن نصف الصداق أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وهو أبو الجارية البكر جعل الله العفو إليه ليس لها معه أمر إذا طلقت ما كانت في حجره

هذا ما يتعلق بالشق الفقهي في الآية ، والسؤال : ألا نلمح في الآية شق أخلاقي ؟

إن هذا جزء من آية من كتاب الله سبحانه وتعالى، وقفت عندها مطولاً، ورأيت كيف أنها تحوي معنىً عظيماً وجليلاً جداً، كم وكم يجدر بالمسلمين أن يقفوا على هذا المعنى، وأن يصبغوا أنفسهم بمضمونه، وأن يقيموا حياتهم على أساسه، ذلك هو قول الله عز وجل: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ٢/٢٣٧].

ولا تنسوا الفضل بينكم: كم يجدر بالإنسان أن يقف أمام هذه الكلمة التي حشيت بمبدأ عظيم، لايكاد الإنسان يستطيع أن يشرحه بمجلدات، ونبين خلاصةً لهذا المعنى الباهر الذي يأخذنا كتاب الله عز وجل به، {وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} شاء الله سبحانه وتعالى، أنه تمتد بين الناس فوق هذه الأرض وشيجة الأُخوة، وشيجة التعاون والتآلف، فكيف يمكن أن تتم هذه الوشيجة، وأن تسري فيما بينهم هذه العلاقة؛ كانت الحكمة التي شاء الله عز وجل، لقيام هذا المعنى بين الناس.

أولاً: أن لايكون الناس معصومين – ماعدا الرسل والأنبياء – قضى الله عز وجل من أجل هذا المبدأ، أن يكون الناس جميعاً ماعدا الرسل والأنبياء معرضين للأخطاء، معرضين للآثام وللانحرافات.

قال الإمام اللقاني في جوهرة التوحيد :

وواجب في حقهم الأمانة	وصدقُهم ، وضِفْ له الفطانة
ومِثْلُ ذا تبليغهم لما أَتَوا	ويستحيل ضدها كما رووا
بالمعجزات أيدوا تكرماً	وعصمة الباري لكل خُتِما

ثانياً: قضى الله سبحانه وتعالى أن يوزع بين عباده هؤلاء المحاسن والمزايا الأخلاقية الحميدة، وقضى أيضاً أن يوزع فيما بينهم المساوئ والجوانب الذميمة ،

وهكذا ينظر الإنسان إلى نفسه ويقارن بينه وبين من يعلم من إخوانه الأباعد والأقارب، ينظر فيجد في نفسه مزايا قد لا توجد لدى إخوانه الأقربين من حوله، ولكنه يتأمل في أولئك الناس فيجد فيهم من المزايا ومن المحاسن التي تقربهم إلى الله مالا يوجد لديه هو، يعود إلى نفسه فيجد في ذاته من الأخلاق الذميمة، ومن القبائح التي يبغضها الله، أموراً غير موجودة لدى من حوله، فكيف تكون النهاية وماذا تكون النتيجة،

عندما يوزع الله سبحانه وتعالى بين عباده هؤلاء المزايا والمحاسن، ثم يوزع فيما بينهم أيضاً النقائص والرذائل، بحيث ينظر كل واحد منهم إلى نفسه، فيجد نفسه مبلىً بنقيصة من النقائص، ولكن أخاه قد عوفي منها، وفي الوقت ذاته يجد أن الله قد أكرمه بمزية من المزايا لم يمتع غيره بها، هذه الظاهرة تجعل الناس بعضهم يحترم بعضاً وتجعل الناس يقدر الواحد منهم فضل الثاني عليه.

إن الناس لا يرون من الآخرين إلا قبائح الفعال يترصدونها لهم :

روى أحمد في مسنده عن أبي سعيد : حديث [يرى أحدكم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع ف عينه]

فلابد وأن يكون في نفسك نقيصة .

فأنا عندما أنظر وأجد أن نقيصة قد رُكبت في كياني، وأنظر إلى من حولي ممن أعرفهم من الأصدقاء و الأقربين، فأجد أنهم قد عوفوا عن هذه النقيصة أعرف الفضل له، وعندما ينظر الواحد منهم بدوره إلى نفسه فيجد أنه يعاني من بعض النقائص، ولكنه ينظر إليّ وإلى أمثالي، فيجد فيه من المزايا مالا يوجد لديه، يعرف الفضل لي ويعرف الفضل للآخرين، وهكذا يتبادل الناس معرفة الفضل بعضهم لبعض.

من أين جاء هذا؟

أولاً: من أن الله عز وجل شاء أن لايكون الناس معصومين.

ثم جاء هذا، من توزيع الله سبحانه وتعالى المزايا الأخلاقية الحميدة بين الناس، بحيث وزع أيضاً فيما بينهم ابتلاءات النقائص. هذا الوضع يجعلني أتطامن لك وأعترف بأن لك فضلاً علي، ويجعلك بدورك أيضاً ــ وأنت المطلع على نفسك والمتعرف إلى نقائصك ــ تتطامن وتعرف فضلي عليك، وأنا أضرب المثل بهذا.

هذا باختصار شديد هو المعنى الذي يتضمنه بيان الله عز وجل {وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} أي إذا جاء من يتباهى بأنه يتمتع بمزية أخلاقية عظمى، يتمتع بالكرم، يتمتع بالذكاء، يتمتع بالإقبال على الله عز وجل بعبادات نادرة قلما يقبل الآخرون إلى مثلها إذا رأيت هذا من نفسي، ينبغي أن أتفحص كياني، فأكتشف في مقابل ذلك النقائص التي أعاني منها، ثم إذا قارنت بين المزية التي متعني الله بها ونقيصتي التي ابتلي بها جاري أو صديقي أو قريبي، ينبغي أن أتابع ولا أقف عند تلك النقيصة التي اكتشفتها، ينبغي أن أتفحص مجموع ما قد هيأه الله في كياني ولسوف أجد لديه من المزايا مالا يوجد لدي، ومن ثمّ أعرف الفضل له، نعم أنا أمتاز بنعمة متعني الله بها ولكنني أعاني في الوقت ذاته من نقيصة لا يعاني بها هذا القريب أو هذا الصديق أو هذا الزميل، وهو يشعر بالأمر ذاته،

عندما يجد نفسه ممتعاً بمزية كبرى، يكتشف أنه بالمقابل يعاني من نقيصة ورذيلة ما ينبغي أن تكــون موجــودة. وينظر فيجد الآخرين من حوله قد عوفوا منها، وهكذا تمتد عندئذ وشيجة التقدير والتآلف، ويعرف كل من هؤلاء الناس الفضل لصاحبه، حكمة عجيبة باهرة أقام الله سبحانه وتعالى المجتمع الإنساني عليها، ثم ذكرنا ولفت نظرنا إلى هذه الظاهرة، فهو يقول: أيها الناس لا تغرنكم المزايا التي يتنبه كل واحد منكم إلى أنه يتمتع بها فهــو إلــى جانب المزية التي أو المزايا التي يتمتع بها، يعاني من عيوب ونقائص غرزتها في كيانه، ولسوف يعلم أن هــذه العيوب والنقائص التي يعاني منها غير موجودة، لدى جيرانه أو أقاربه الذين يقارن بينهم وبينه، فإذا رأيت لنفسك مزية على أحدٍ من إخوانك فلا تنسَ أن لك نقيصة لا يعاني هو منها، لا تنسَ هذه الحقيقة ثم يأتي بعد ذلــك دور حُـــــــــــســن الخلـــــــــــق.

مــــــــــــا هـــــــــــو حـــــــــــسن الخلـــــــــــق؟

حسن الخلق: أن أنظر إلى الناس أبحث فيهم عن المزايا التي تنقصني ولا أبحث لديهم عن العيوب التــي بُــرأت منهـــــــا. باختـــــــصار هـــــــذا هـــــــو حُـــــــسن الخلـــــــق.

حسن الخلق: إذا تعرفت على صديق أو إلى جار أو إلى قريب، قد أكتشف بسهولة بعض النقائص لديــه، وربمــا رجعت إلى نفسي فقلت في نفسي أنا لا أعاني من هذه النقيصة، ولكن مهلاً تابع.... تجاوز هذه النقيــصة لــدى جارك وانظر فلسوف تجد فيه مزايا لا تتمتع بها أنت. وعندئذ ستطمئن له ولسوف تعرف الفضل له، وهو الآخر أيضاً ينبغي أن ينظر إلي النظرة ذاتها، ومن هنا يتحقق معنى قول الله عز وجل: {إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْــلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ٤٩/١٠].

لاحظوا أيها الأخوة ، لو أن كلاً منّا كان من دأبه أن يتلمس العيوب والعثرات لدى إخوانــه وأصــحابه وأقاربــه ويسير في تعامله مع الناس على هذا المنوال إذاً لتقطعت وشيجة التآلف ووشيجة التراحم والتحابب والــود ممــا بينهم، وإذاً لما برّ ولد أباه، ولما رحم والد أولاده، ولما سرت المحبة والمودة والتآلف بين أخوة وأصدقاء، ذلك لأن الناس كلهم غير معصومين، هكذا شاء الله عز وجل، ولكن الناس كلهم أيضاً إلا المستكبرون الذين طردهم الله في الدنيا من رحمته وهؤلاء أخفى الله عنا هوياتهم، كل الناس ماعدا هؤلاء قد أكرمهم الله عز وجل بمزايا، بمزايــا نادرة.

والله ما رأيت إنساناً لاح لديّ منه في بادئ الأمر أنه رجل سوء له انحرافات وله أعمال سيئة؛ إلا واكتشفت بعــد ذلك أن له مزايا لا توجد لدي، ونظرت فوجدت أن الله قد أهدى إليه من الأخلاق الفاضلة ما يجدر أن يوجد مثلــه لدى الآخرين، عندئذ تذكرت قول الله عز وجل: {وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ}.

ألا ترى حديث : لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر ؟

يدعوني هذا إلى أن أتطامن إلى هذا الإنسان، ما أدراني هذا الإنسان الذي يتمتع بمزية باهرة لا أتمتع بها أنا لعل الله عز وجل يكرمه غداً إذا قام الناس لرب العالمين بهذه المزية، ويجعل منها شفيعاً لكل السوء الذي اكتشفته في كيانه، وما أدراني لعل هذه النقيصة التي أعاني منها لعل هذا العيب الذي رُكب في كياني، لعله يودي بكل المزايا التي أتمتع بها، فيجعلني الله سبحانه وتعالى قريباً من عذابه بسبب هذه النقيصة التي أعاني منها ما أدراني؟

أيها الإخوة: إذا مررتم وأنتم تقرؤون كتاب الله عز وجل على قوله {وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُــونَ بَصِيرٌ} قفوا أمام هذه الوصية الكبرى التي حشيت بمعانٍ كثيرة كثيرة وعظيمة، وهي جماع معنى حُسن الخلــق،

وهي الحكمة من أن الله لم يجعل الناس كلهم معصومين، بل الناس كلهم خطاؤون، ثم هي الحكمة من أن الله عز وجل كما ابتلى هؤلاء الأفراد بالنقائص لأنهم خطاؤون، وزع فيما بينهم المزايا أيضاً، فما تتمتع به من مزية لا أتمتع بها، وما أتمتع به أنا من مزية لا تتمتع بها، إذاً لابد أن يشيع فيما بيننا الفضل، أفضلك علي وتفضلني على ذاتك، وهكذا يكون حسن الخلق، وهذا من معنى قول الله عز وجل {يا أَيُّها النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ} [الحجرات: ١٣/٤٩] شعوب وقبائل لماذا يا رب؟ لماذا لم يكن الناس كلهم شعباً واحداً طبعوا بمزية واحدة، وبقدرات واحدة؟ إذاً لما شاع بينهم التعارف، كل شعب يمتاز بمزية، كل قوم ميزهم الله سبحانه وتعالى بنوع من القدرات أعطى أرضهم أنواعاً من الأطعمة والأغذية، أنا أحتاج إلى ما متع الله به ذلك الشعب وأولئك يحتاجون إلى مامتع الله سبحانه وتعالى به هذه الأرض، إذاً فلابد أن أمدَّ يد الاستعانة إليهم، ولابد أن يمدوا يد الاستعانة إلي، وهكذا يشيع التآلف والتعارف، وستحمل لنفسك من هذا رأس مال تفد به إلى الله عز وجل، حتى ولو كانت بضاعتك من الدين مزجاةً سيجعل الله لك من حسن ظنك هذا شفيعاً لسوء أعمالك.

حديث : المتألي على الله أن لا يغفر للمسيئ ,

وبعد أيها الإخوة: إذا أردنا أن نفلسف حسن الخلق فهذه هي فلسفة حسن الخلق فصلت ثم جمعت ثم اختصرت في هذه الكلمة {وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} ثم شرحها لنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندما قال فيما رواه الطبراني والبزار من حديث عبد الله بن مسعود وأبي هريرة أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: ((إن أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلي المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، المتلمسون للناس العيب)). لاحظتم كيف يفسر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذا، أنا عندما أتلمس للناس العيب بسهولة أستطيع أن أكتشفه، لكن ليست هذه هي البطولة، البطولة أن تتلمس لنفسك العيب، أن تكتشف ما قد حشي فيك من العيوب، وأن تتلمس مايوجد لدى الآخرين من الفضائل حتى تطبق من خلال ذلك معنى قول الله عز وجل: {وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ}، ورحم الله الإمام الشافعي ــ ولسوف أستشهد به وإن كرّه بعض الناس الشعر في الخطب ــ إذ يقول:

لسانك لاتذكر به عورة امرئ   فكلك عورات وللناس أعين

حديث : م ت عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ كَانَ الْكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَأَهَا فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ أَرْعَدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ مَا يُبْكِيكِ أَأَكْرَهْتُكِ قَالَتْ لَا وَلَكِنَّهُ عَمَلٌ مَا عَمِلْتُهُ قَطُّ وَمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ إِلَّا الْحَاجَةُ فَقَالَ تَفْعَلِينَ أَنْتِ هَذَا وَمَا فَعَلْتِهِ اذْهَبِي فَهِيَ لَكِ وَقَالَ لَا وَاللَّهِ لَا أَعْصِي اللَّهَ بَعْدَهَا أَبَدًا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لِلْكِفْلِ,

ولا تنسوا الفضل بينكم

خطاب للصغير عندما يكون في حضرة الكبير ,

خطاب لتلميذ في حضرة معلمه ,

خطاب الناس مع العلماء ،

خطاب للزوج مع زوجته ،

خطاب للأمير مع رعيته : أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم ,

خطاب لمؤمنين فيما بينهم , أن لا يفتشوا عن عيوب الناس فحسب ، بل عن عيوب أنفسهم أيضاً

وضياع العمل بهذه الآية مؤذن بقرب الساعة ...

حم د – قَالَ عَلِيٌّ بن أبي طالب : يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عَضُوضٌ يَعَضُّ الْمُوسِرُ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ قَالَ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ "وَلَا تَنْسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ" ، وَيَنْهَدُ الْأَشْرَارُ وَيُسْتَذَلُّ الْأَخْيَارُ وَيُبَايِعُ الْمُضْطَرُّونَ قَالَ وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْعِ الْمُضْطَرِّينَ وَعَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ وَعَنْ بَيْعِ الثَّمَرَةِ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَ,[1]أهـــ

وهذا آخر ما يَسَّرَ اللهُ جمعه بفضله ورحمته ,

[1] (زَمَان عَضُوض) : قَالَ فِي الْقَامُوس : عَضِضْته وَعَلَيْهِ كَسَمِعَ وَمَنَعَ عَضًّا وَعَضِيضًا أَمْسَكْته بِأَسْنَانِي أَوْ بِلِسَانِي وَبِصَاحِبِي عَضِيـــضًا لَزِمْتـــه , أَوْ الْعَضِيض الْعَضّ الشَّدِيد وَالْقَرِين , وَعَضّ الزَّمَان وَالْحَرْب شِدَّتهمَا أَوْ هُمَا بِالظَّاءِ , وَعَضّ الْأَسْنَان بِالضَّادِ (يَعَضّ الْمُوسِر) : أَيْ صَاحِب يَسَار (عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ) : أَيْ بُخْلًا (وَلَمْ يُؤْمَر بِذَلِكَ) : بَلْ أُمِرَ بِالْجُودِ { وَلَا تَنْسَوْا الْفَضْل بَيْنكُمْ } . أَيْ أَنْ يَتَفَضَّل بَعْضكُمْ عَلَى بَعْض (وَيُبَايِع الْمُضْطَرُّونَ) : عَطْف عَلَى قَوْله يَعَضّ الْمُوسِر (وَقَدْ نَهَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْع الْمُضْطَرّ) : قَالَ فِي النِّهَايَة : هَذَا يَكُون مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدهمَا أَنْ يُـــضْطَرّ إِلَى الْعَقْد مِنْ طَرِيق الْإِكْرَاه عَلَيْهِ وَهَذَا بَيْع فَاسِد لَا يَنْعَقِد , وَالثَّانِي أَنْ يَضْطَرّ إِلَى الْبَيْع لِدَيْنٍ رَكِبَهُ أَوْ مُؤْنَة تُرْهِقهُ فَيَبِيع مَا فِي يَدَيْهِ بِالْوَكْسِ لِلــضَّرُورَةِ , وَهَذَا سَبِيله فِي حَقّ الدِّين وَالْمُرُوءَة أَنْ لَا يُبَايِع عَلَى هَذَا الْوَجْه , وَلَكِنْ يُعَار وَيُقْرَض إِلَى الْمَيْسَرَة أَوْ يَشْتَرِي إِلَى الْمَيْسَرَة أَوْ يَشْتَرِي السِّلْعَة بِقِيمَتِهَـــا , فَإِنْ عَقَدَ الْبَيْع مَعَ الضَّرُورَة عَلَى هَذَا الْوَجْه صَحّ مَعَ كَرَاهَة أَهْل الْعِلْم . وَمَعْنَى الْبَيْع هَا هُنَا الشِّرَاء أَوْ الْمُبَايَعَة أَوْ قَبُول الْبَيْع (وَبَيْع الْغَــرَر) : تَقَــدَّمَ تَفْسِيره (قَبْل أَنْ تُدْرِك) : بِضَمِّ أَوَّله وَكَسْر الرَّاء . قَالَ فِي الْقَامُوس : وَأَدْرَكَ الشَّيْء بَلَغَ وَقْته وَالْمُرَاد قَبْل أَنْ يَبْدُو صَلَاحهَا . قَالَ الْمُنْذِرِيّ فِي أَسِنَاده رَجُل مَجْهُول .